

مازونة في الشعر العربي الحديث مقارنة موضوعاتية في قصائد شعرية مختارة

د/ سعيد بكير - جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف-

ملخص

تعد مدينة مازونة من المدن الجزائرية التاريخية الضاربة في عمق التاريخ، ومنارة من منارات العلم منذ القدم، وخاصة في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي)، وفي عهد التركي، والفترة الاستعمارية أيضا، لذلك كانت مقصداً لجمع من العلماء، زارها للتعلّم والاكتشاف في مختلف فروع المعرفة (تعلم القرآن وحفظه، التفسير، علم الحديث، أصول الفقه، القضاء...) كما نالت نصيبا وافرا من زيارات الرحالة أمثال: مرمول (الاسباني)، شاو (الانجليزي)، ابن الفقون القسنطيني،... وغيرهم، وخلّدها بعضهم في قصائد شعرية، لذلك ارتأيت أن أشير إلى فضل علماء هذه المدينة ومكانتها، من خلال بحثي هذا الذي اتبعت فيه القراءة الموضوعاتية لبعض من القصائد.

الكلمات المفتاحية: مازونة اسمها وتأسيسها، علماء مازونة، مازونة في شعر جلول البدوي، مازونة في شعر أحمد صديق.

تمهيد:

يقول أبو حيان التوحيدي في الإمتاع و المؤانسة: "إن الكلام على الكلام صعب.... فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضه بعض" ⁽¹⁾، كذلك الحديث عن الشعر وأثره في الحياة الاجتماعية، ونقل الحوادث وتخليدها، يدخل ضمن هذا السياق، الذي يجعل من لغته لغة فوق اللغة، و يصبح سيّدا للكلام كما

قال مالارميه، و بذلك يستحق تمثيل فكر وهويّة الأمة ، و يكون علامة للأصالة و الانتماء.

فلقد كان الشعر، ومنذ حقب مديدة، رمزا من رموز إبراز الهوية، ففي العصر الجاهلي، عرف الشاعر القبيلة و تغنى بها، و عبّر عن اعتزازه بها، و نصرها ظالمة أو مظلومة فقال(دريد بن الصمة):

وهل أنا إلا من غزّيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزّيّة أرشد⁽²⁾

ثم عرف بعد القبيلة، المدينة وجدّد هذه الرابطة، خاصّة عند المحدثين، الذين تفاعلوا مع كل قضايا الأمّة العربية وغدا الإحساس الموحد يجمعهم في كل نائبات الدهر، ولقد كانت المدينة، وما تزال مقصداً للشعراء في كل عهد، يستلهمون منها، روائع شعرهم بما تملكه من خصائص ومميّزات تاريخيّة وثقافيّة وجغرافيّة، فقديماً وبعد معرفة العربي لها عن طريق الحضارات الأجنبية، أقام لها الشعراء غرضاً يسمى "رثاء المدن"، وهذا بعد سقوطها أو تحطيمها، كما عرفها الشاعر العربي طلالاً يبكيه ويبوح له بسرّه، أضف إلى ذلك أنّها تمثّل الطرف الثاني في الصراع القائم مع البادية، ومن هذه المدن العريقة: دمشق، القاهرة، بغداد، واسط، فاس، أنطاكيّة، بيروت، البتراء.....الخ.

ومن الأمثلة الشعريّة التي تمجّد المدينة على سبيل المثال-لاالحصر- ما قاله أحمد شوقي عن دمشق في نكبتها 1926م، عندما ضربها الأسطول الفرنسي، إذ يقول :

سلامٌ من صبا بردى أرقّ ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشق
ألستِ دمشقُ للإسلامِ ظنّاً ومُرضعةُ الأبوةِ لا تعقُ⁽³⁾

وقول محمد العيد آل خليفة في تمقاد:

وقفتُ على تمقادٍ وقفةً جائليّ وطفتُ بها مسترشداً بالدلائلِ
عجبتُ لها من بلدةٍ أثريّةٍ خلت منذ أجيالٍ طوالٍ دوائليّ⁽⁴⁾

وعلى العموم كانت " نظرة الشاعر إلى المدينة نظرة كليّة شموليّة تجمع بين الأرض و الإنسان"⁽⁵⁾، أي بين الإنسان و أمّه الأولى و هي علاقة قديمة مترسّخة، و الشاعر بهذه

النظرة يمجّد التمسك بأرض العروبة والإسلام من جهة، و من جهة أخرى ترتبط هذه العلاقة بالحسّ الإنساني، و هو حسّ لا يعرفه إلا شاعر، و لعل ما دَعَم هذه الصلة أكثر عامل الاستعمار، الذي جعل أصوات الشعراء تتعالى و تثور من أجل الحرية والاستقلال، و من هؤلاء الشعراء، بدر شاكر السيّاب، محمد العيد آل خليفة، أبو القاسم الشابي، محمود درويش،.... الخ.

كما نالت المدينة الجزائرية قدراً وافياً من الاهتمام، وسجّلت حضورها في ساحة الشعر، بفضل مدنها العريقة، سواءً قبل الاستعمار الفرنسي (1830) أو بعده، فلقد كانت كل من: الجزائر العاصمة، تلمسان، بجاية، مازونة وقسنطينة، من أهمّ المراكز الثقافية، التي نشّطت الحركة السياسيّة والعلميّة في الوطن العربي، وبين الجزائريين⁽⁶⁾، ففيما ذكره تركي رابح، أنّ الثقافة الجزائرية بلغت أوجّ ازدهارها في المرحلة الممتدة (1800-1830م)، أي قبل دخول الاحتلال الفرنسي، وإفساده المعاهد والمؤسسات.

وتعد مدينة مازونة، من المدن التاريخية الهامة، التي أسهمت في بعث الحضارة الإسلامية في المغرب العربي وقطباً هاماً من أقطاب التربية والتعليم، جلبت إليها أنظار المتعلمين والرحالة من مختلف بقاع العالم، وكانت تتولى التدريس في أعلى مستوياته (الثانوي والعالي)، فقد كانت "مدرسة مازونة في الغرب الجزائري ذات الشهرة البعيدة الصيت، ومدارس تلمسان وبجاية، وغيرها من المدارس الأخرى، تنهض بالتعليم، في هاتين المرحلتين"⁽⁷⁾، فعاد إليها الفضل في اتساع رقعة العلم والتعلّم بفضل جهود علمائها، الذين كانت لبحوثهم وتوجيهاتهم دور كبير في توسيع دائرة الاهتمام بالثقافة، ولذلك أصبحت شاهداً حياً ومعلماً بارزاً على أنموذج المدينة العريقة.

نبذة تاريخية عن مازونة :

اسم المدينة :

ولقد اختلف في تحديد مرجعيته وحقيقته، ووردت آراء عديدة في هذا المجال "حيث ورد في كتاب دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني أنّ مازونة هي اسم لرئيس قبيلة زناتية تدعى "ماسون" المعروف بـ "رجيس ما سينغ جانيس"، وكما يذكر الدكتور مولاي بالحميسي، فضلا عن مذكرات السيد لوكيل يوسف المازوني، الذي عاش ما بين 1884-1940، أنّ مازونة تستنبط اسمها من اسم ملكة كانت تملك كنزاً كله نقوداً يسمى "موزونة"، وفي رواية ثانية أنّ ملكاً يدعى "ماتع" جاء إلى عين المكان له بنت اسمها "زونا"، والتي نسب إليها منبع الماء "ماء زونا"⁽⁸⁾.

تأسيس المدينة :

تعتبر مدينة مازونة من المدن الجزائرية العريقة، الضاربة في عمق التاريخ، اختلفت الآراء حول تأسيسها، حيث يرى محمد الوزان الفاسي صاحب كتاب "وصف إفريقيا" أنّ مدينة "مازونة أزلية بناها الرومان – حسب قول بعضهم- على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر، تمتد على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة، لكن دورها قبيحة فقيرة، وفيها جامع ومساجد أخرى، لقد كانت مدينة متحضرة جداً في القديم، لكنها كثيراً ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة، ومن قبل الثورات تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب ويشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان، لا تحمل أي اسم معروف لدينا لكن يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام، ولم يذكرها قط مؤرخونا الأفارقة"⁽⁹⁾.

أما الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق واختراق الآفاق"، وهو من علماء القرن السادس عشر، فقد كتب عن مازونة قائلاً: "مدينة مازونة على ستة أميال من البحر وهي مدينة بين أجبل وهي أسفل خندق ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان والسمن والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها

فواكه وخصباً⁽¹⁰⁾، حيث لم يشر الإدريسي إلى تاريخ تأسيسها ولكنه وصف المدينة ونشاط سكانها، الذين ذكر أنهم من البربر.

أما تاريخ هذه المدينة عند الرحالة الاسباني Marmol-Carvjal فيرجعه إلى العهد الروماني، من خلال ما جاء في كتابه "إفريقيا"، ففيه كتب "أنّ مازونة مدينة عتيقة بين مستغانم و تنس، أسوارها عالية حصينة، ترى بها أنقاض عدة مدن خربت منذ عهد الرومان، ويستدل في ذلك على لوحات كبيرة من المرمر، و تماثيل من الحجر، و بعض الكتابات اللاتينية المنقوشة⁽¹¹⁾، أما ابن خلدون فيرجع تأسيسها إلى القرن الثاني عشر ميلادي (565هـ) على يد عبد الرحمان أبو منديل زعيم مغراوة⁽¹²⁾، ويشير محمد بن يوسف الزياني إلى أنّ مازونة دمرت عام (665هـ) حسب قول الدكتور مولاي بالحميسي:

alzayyani, Muhammad ibn yusuf « d'autre part, l'historien oranais , alhayran » affirme que mazouna fut détruite en 665 de son « dalil dans l'hégiré »⁽¹³⁾.

ويذكر " شاو Shaw الرحالة الانكليزي عن مازونة أنّها أسست من طرف الأهالي باعتبار أنّ بناياتها تشبه القلعة، وهو يعارض مرمول (Marmol) الذي يرجعها إلى العهد الروماني، حيث يذكر أنّه ينبغي بالضرورة وجود آثار وبنايات تعود إلى هذا العهد، غير أنّ الإدريسي يحدد بعض التفاصيل حول المدينة، ويذكر أنّها كانت موجودة منذ القدم قبل الإسلام بحوالي بضعة قرون⁽¹⁴⁾.

بعض أعلام مازونة:

في قلب جبال الظهرة، الممتدة من جبال الزكار بمليانة، انبثق شعاع مازونة الثقافي، وانتشر نوره عبر الوطن يملأ الدروب وينير قلوب الوافدين عليها من طلبه العلم، وكانت بذلك أحد أهم المراكز العلمية، مكّنها هذا من أنّ تكون عاصمة لباليك الغرب في العهد التركي، ومركز سلطة لقبائل مغراوة في العصر الوسيط، كما كانت عاصمة ثقافية معروف قدرها على غرار المدن التاريخية الأخرى كتنس،

مستغانم، تلمسان ومليانة، فوصفت منذ القديم بمدينة العلم والعلماء، لا لشيء إلا لكثرة علمائها الرواد الذين أفادوا و أناروا سبيل الأمة، وكانوا القبلة التي يقصدها الطلاب للاستزادة في العلم والتبحر فيه.

هؤلاء، العلماء الذين " لولا أبوراس الناصري الذي تتلمذ عليهم لما عرفنا عنهم شيئا لقد أفادنا رحمه الله بشهادته الحية قائلا: جهابذة... فهم ذوو الخبرة التامة بعلم الشريعة ومختصر الخليل* حفظا ولفظا ومعنا، ميزتهم الأولى أنهم من أهل البلد الذي ضمن للمدرسة الاستقرار ومكنها من مواصلة المهمة"⁽¹⁵⁾، ويبلغ عددهم أربعة عشر عالما في حين تتلمذ على يد خمسة علماء من معسكر واثنان بمستغانم.

تأسست مدرسة مازونة الفقهية (Medersa) في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، حوالي 1029 هـ أسسها سيدي محمد بن الشارف⁽¹⁶⁾، عكف علماؤها على تدريس المتطوعين، أفادوا الأفراد والعباد، وكانوا أئمة يقتدى بهم في العلم والدين والنظم والفتاوى، درسوا القرآن الكريم وجعلوه المادة الأساسية لهم، وبحثوا في أصول الفقه واهتموا بالتفسير وحفظه، ومن أشهر أعلامها ما ذكر في كتابي الدكتور مولاي بالحميسي وهما:

Histoire de Mazouna

-

- مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين

وما ذكر في كتاب الأستاذ: جنان الطاهر، عنوانه: "مازونة عاصمة الظهرة، ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري"، وهو أستاذ متخصص في التاريخ والحضارة الإسلامية.

- أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني، فقيه وقاضي البلدة وصاحب مؤلفات عديدة أشهرها:

- دباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار .

- الرائق في تدريب النشء من القضاة أهل الوثائق.

- حلية المسافر⁽¹⁷⁾.

- أبو زكريا يحيى بن أبي عمران المغيلي المازوني: المتوفى سنة (883هـ / 1478م) من أهل الدين والصلاح من أعلام القرن المذكور، درس أولاً على يد أبيه أبي عمران موسى، ثم على علماء تلمسان مثل ابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وأبي عبد الله محمد بن يحيى الهوا ري المعروف بالأبرش، كما عاصر ملوكاً ثلاثة من بني زيان وهم: أبو العباس أحمد (1431م / 1462م)، ومحمد المتوكل (1462م / 1471م)، وأبو عبد الله الثابتي (1473م / 1505م) ⁽¹⁸⁾.

وهو صاحب كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ألفه ما بين (1441م / 1478م) سنة وفاته، ورغم أن يحيى المازوني لم يؤلف كتابه (الدرر) لكي يكون كتاباً سياسياً، فإنه ضمّنه من قضايا العصر وفتاوى الفقهاء أو النوازل، ما يكشف عن الحياة السياسية والاقتصادية في الغرب الجزائري، وخصوصاً ضعف الدولة الزيانية ⁽¹⁹⁾، كما درّس القضاء بتنس ومازونة، وهناك علماء كثر نكتفي بذكر أسمائهم فقط:

- أحمد بن محمد بن زكريا المازوني توفي (889هـ / 1493م)
- الشيخ أبو طالب محمد بن علي بن الشارف المازوني (ق 11هـ)
- عبد الرحمان بن علي بن الشارف المازوني.
- محمد الصادق الحميسي بن علي المازوني .
- الحسن بن محمد بن مصطفى المازوني (ق 12هـ)، وله كتابان:
- تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك.
- منهاج السلوك في شرح معاني تحفة الملوك.
- سيدي هني بن محمد أبو طالب: توفي في معركة مسرغين (1791م / 1205هـ) .
- الشيخ بن علي بن الشيخ أبي عبد الله المغيلي والد الصادق الحميسي.
- نصر الدين محمد المازوني.
- لوكيل يوسف المازوني (1884 / 1940م)

- مولاي بالحميسي.
- وهناك علماء ليسوا من أبناء المنطقة ونذكر منهم:
- الشيخ أبو رأس المعسكري (1737/ 1823م)
- الشيخ السنوسي المجاهري (1791/ 1859م)
- الشيخ محمد بلقندوزي المستغاني المتوفي 1829م
- سيدي موسى بن شهيدة توفي سنة 1922 (تيارت)
- الشيخ محمد الميسوم بن محمد بن أحمد (1820/ 1882م) عريب، عين الدفلي
- سيدي أحمد بن يوسف الملياني (ت 927هـ/ 1521م)
- سيدي محمد بن علي أهلول المجاجي (1538م)
- ابن الفقون الحسن بن علي القسنطيني 1214م
- الحسن الوزان الشهير بلقب الأسد الإفريقي (1495م/ 1552م)، وغيرهم كثيرون....⁽²⁰⁾.

هذه المدرسة واصلت مسيرتها بمساعدة باي وهران وحكام العاصمة، وجهود هذه الأسماء المذكورة سابقا، ومن خصائص هذه المدرسة أن يلقي الدرس بالعامية، وذلك لجلب المتعلم البسيط والأخذ بيديه، ولأن العامية خالية من الغريب والتعقيد، كما كانت تعتمد الطريقة الجاحظية، وهي طريقة يخلط فيها الجد بالهزل لقول الشاعر:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة *** وتقرير إيضاح لمشكل صورة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد *** وإياك تركا وهو أقبح خله⁽²¹⁾.

كما ساهم طلبة المدرسة في فتح وهران 1791م في نهاية القرن 18م من يد الإسبان وشاركوا بحوالي مائتي طالبا، وكان يحكمها آنذاك محمد بن علي بن الشارف المازوني. صورة مازونة ، قراءة موضوعاتية في نماذج شعرية مختارة :

إنَّها صورة تشكّلت حدودها المتداخلة الألوان والأبعاد على مدى حقبة ممتدة من الفعل الكتابي، فعل كانت تحكمه في الغالب عوامل دينية قوامها العامل العقائدي، الذي كثيراً ما وسوس إلى ذويه بأحكام طبعها البيئة والتفكير، ولأنَّه يتعذر علي ذكر كل ما قيل عن مازونة وأعلامها ارتأيت أن أحصر الاهتمام عند الخطوط الكبرى التي حفل بها الجهد التصوري لصورة أعلام مازونة، وتعوياً بالدرجة الأولى على بعض النصوص الحديثة .

1/ مدح الشيخ جلول البدوي* مازونة وأعيلها فقال:

أذكر مازونة وأعرف قدر ما اشتملت *** عليه من خير ينويه مرتادُ

مدينة جال فيها العلمُ جولتهُ *** إذ عاش فيها من الأعلام أطوادُ

آل الحميسي فيها امتاز فضلهم *** وما أثنوا منه ما جاروا وما حادوا

مضوا مصابيح هدى في القضاء مدى *** يسوسهم في مجال العدل ميعادُ

فعالم يتولى شرح غامضة *** من الشوارد فواحها لهم زادُ

وعالم همه للفقهِ منبعث *** وفكره فيه بالإدراك وقادُ

تناولوه فلم يبرح بهم لهجاً *** كأنما احتكروه الدهر أو كادوا

وقد وعى لهم التاريخ ما صنعوا *** به احتفل فهو هيمان وغراد⁽²²⁾

في هذه القصيدة يمدح الشاعر أهل مدينة مازونة، ويبيّن أنَّها منارة ومدرسة قديمة في إقليم الغرب الجزائري، عرفت نشاطاً علمياً مبكراً كغيرها من المدارس: مليانة، تنس، مستغانم، قسنطينة وهران، ... الخ، وبلغ صيتها الشرق والغرب خاصة في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، أسسها الأهالي بأموالهم الخاصة، ويعتبر الشيخ سيدي محمد بن الشارف الإمام الأول لها، حيث درّس بها ما يزيد عن أربع و ستين (64) سنة، زارها العديد من طلبة العلم، طلباً للاستزادة والتبحر في العلوم التي عرفت بها مثل: الشريعة والفقه والحديث والتفسير والقضاء.

كما وضّح أنّ نشاط المدرسة ظلّ مستمراً، ولم يعرف الانقطاع من مغراوة إلى الأتراك وصولاً إلى عهد الاحتلال الفرنسي 1830م، وهي مدرسة ضاربة في عمق التاريخ،

عاش فيها أطواد العلماء أمثال: المغيليان*، أبو راس الناصري، آل الحميسي، آل كتروسي..... الخ، وكانت قبلة للعلم تنافس تلمسان و فاس و مليانة، و يعتبر أبو زكريا يحيى بن أبي عمران المغيلي المازوني، مؤلف كتاب " الدرر المكنوبة في نوازل مازونة" من أشهر علمائها وفيه قال التادلي: "... آية من آيات الله في العلوم: محدث و فقيه، حافظ، محقق، و قدرة عالية في معرفة الحديث، و قال من أدركنا من الفضلاء أنه يحفظ 27000 حديثا و في رواية أخرى يقول إنه كان إماما مشاركا في فنون العلم يستحضر نحو 48.000 حديث بإسنادها "(23).

كما تطرق، وفي جانب آخر من القصيدة إلى ذكر محاسن علمائها، الذين نبغوا في القضاء، ومنهم العائلة المشهورة: آل الحميسي، و هم من فروع العالم الجليل أبو زكريا المغيلي المازوني.

2/ مدح عبد الله المشرفي* (قاضي معسكر) الصادق الحميسي المازوني وهو تلميذه وقد زاره بـمازونة:

مازونة خير القرى *** وأهلها خير أناس
لم تلق فيهم جنينا *** إلا كريما أو مواس
لا سيما قاض بها *** حاز لفخار والتراس
العلم صار طبعه *** والمجد خير لا يقاس
أكرم به من عالم *** سما بفكر ودراس
ضاهى بفقهِ مالكا *** ولغة أبا نواس (24)

في هذه الأبيات الشعرية، يمدح الشاعر تلميذه (القاضي) من عائلة آل حميسي، وهو ابن علي بن أبي عبد الله المغيلي، درس بمعسكر والأزهر، رجع إلى مازونة وتولّى القضاء بها ردحا من الزمن ثم انتقل إلى وهران بعد الفتح 1206هـ، و هي عائلة مشهورة بالقضاء في مازونة سكنت مغيلة. وهي منطقة جبلية بوايرزن تحت مازونة. تميّزت بالأخلاق العالية و الصفات الحميدة كالكرم و المواساة، ومعرفتهم للعلوم كالفقهِ والتفسير وأصول العربية، وكانوا من أعمدة المدرسة بـمازونة.

كما نالت مدرسة مازونة* التي تطورت في العهد التركي، و أعيد بناؤها في العهد الفرنسي، في عهد لويس نابليون (1852-1870م) نصيبا وافرا من زيارات الرحالة الأجانب و منهم:

- الرحالة لاسباني : (description général d` africa) MARMOL , CARVJAL
- الرحالة الانجليزي : SHAW thomas chapelain (1751-1692) .
- الرحالة الألماني: (heniech Von maltsen) هاينريش فون مالستان زار المغرب في ما بين (1852-1857).
- الأستاذ: جينيو géniaux و كتب عنها في المجلة الإفريقية، وذلك قبل وفاة أبي راس بن أبي طالب سنة 1916م ، و هو من حفدة أبي راس الناصري.
- الأستاذ : بوسكي Bousquet ، زار مازونة سنة 1947.
- ابن الفقون الحسن بن علي القسنطيني (الرحالة) أثناء رحلته من قسنطينة إلى مراكش، ملتحقا بالخليفة الموحي محمد الناصر (1199 / 1214م) ذكر في قصيدته مازونة فقال:

وفي مازونة مازلت صبّا *** وهمت بكل ذي وجه وضي (25)

● نص الرحالة المصري:

(قيلت هذه القصيدة في شأن محمد أبي راس بن أبي طالب المتوفى 1917م)

ألمّا على مازونة وانظرا العلى *** فمازونة بيت الهدى وسلام

وهل بعد بيت العلم بيت لقاصد *** دعائمه فوق السما ومقام

لها شهرة قدما ببث علومها *** ونشر التقى بين الورى وأنا

حماها منيع والمقام مشد *** وذكر لها يسري كبد رتمام

أبى لله إلا أن تكون ككعبة *** ملاذا لمن قد ضل بين ظلام

رحلت بلاداً في الزمان كثيرة *** لأنظر حال العلم بين خيام

فشاهدت كلاً بين مثن وشاكر *** لها خير صنع في أجل نظام

ولا عجب فالله أيد أزرها *** بهذا الذي بين الملا كإمام

غنيت به بدر الأئمة مالكا *** فقيه الثرى بل رأس كل همام
 محمد أبوراس لذا سار نهجه *** وسوى سبيل الفقه خير إمام
 وقام له بين الرجال يخدمه *** وعزم متين فوق حد حسام
 فأظهر مكنونا وأبدى دقايقا *** وأخرج آيات بخير قوام
 وبرز بل عزّ النظر وفاته *** وفاق فكلّ قد رمى بزمام
 وأثنى عليه الفقه والدين والهدى *** بقول بديع في جميل كلام
 ومن يخدم العليا فالله عونهُ *** ويجزيه خيراً وفق صنع سلام
 قدم يا إمام القوم درة تاجهم *** وبدرأ منيراً فيك مسك ختام.⁽²⁶⁾

قراءة في قصيدة الرحالة المصري:

هذه القصيدة، قالها الرحالة المصري صديق أحمد سنة (1332هـ-1919م) عن محمد أبي راس المازوني، وكشف فيها عن صور عديدة عن مازونة وعن هذا العالم الذي مدحه، وسنركّز في هذا التحليل على الصورة السراب*، و سنلتقط كل صورة وردت ملتصقة بالصورة الأم على الرغم من أنّها صور من نوع آخر (ليست أدبية)جغرافية أو دينية أو لونية.....، كما سنعمل على ربط الصورة بالمتخيل الاجتماعي، ومحاولة مقاربتها من الوجهة التاريخية والأنثروبولوجية. وعليه فتحليل أي صورة يقوم على العلاقة بين الصورة والمتخيل الاجتماعي وذلك

بـ

- 1- كشف بنى النص الكبرى
 - 2- الوحدات التيماتية الكبرى
 - 3- المستوى المعجمي للكلمات التي تنكتب الغيرية بفضلهما
- كما يمكن أن تفهم كل "صورة مدروسة بمعان ثلاث هي صورة الأجنبي، والصورة الصادرة عن أمة ما (أو مجتمع ما، أو ثقافة ما)، وأخيرا الصورة المبتدعة من قبل حساسية خاصة بكاتب ما"⁽²⁷⁾.

وعليه يمكن تقسيم هذه القصيدة إلى صورتين (لوحيتين):

- صورة أولى ← بنية كبرى أولى

- من البيت الأول ← إلى البيت التاسع

وتمثل هذه الأبيات الدور العلمي والثقافي والديني الذي امتلكته مازونة بفضل أعلامها، الذين جعلوها قبلة، وكعبة لطلبة العلم القادمين إليها في كل زمان، ولعل محمدا أبو راس واحد من هؤلاء الأعلام الذين رفعوا راية العلم والدين بهذه البلدة الصغيرة.

- الصورة الثانية ← البنية الكبرى الثانية

- من البيت العاشر ← إلى آخر القصيدة.

وفي هذه الصورة التي أفردتها الشاعر لمحمد أبي راس ولأعماله الجليلة، أبرز كل خدماته التي وهبها للبلدة، والتي جعلته يتفرد عن الآخرين، الذين لا يضاهونه علما وقدرًا، وفي الصورتين السالفتي الذكر، عرف الشاعر كيف ينسق بينهما فلم يظهر للقارئ أي انفصام بل ظهرت كلتاهما كلوحة واحدة ملتحمة العناصر، لأن من طبيعة الصورة غياب الفجوة فيها، أما بالنسبة للوحدات التيماتية الكبرى فيمكن تحديدها كالآتي:

- الوحدة الأولى: من البيت الأول إلى السابع.

- الوحدة الثانية: من البيت الثامن إلى العاشر.

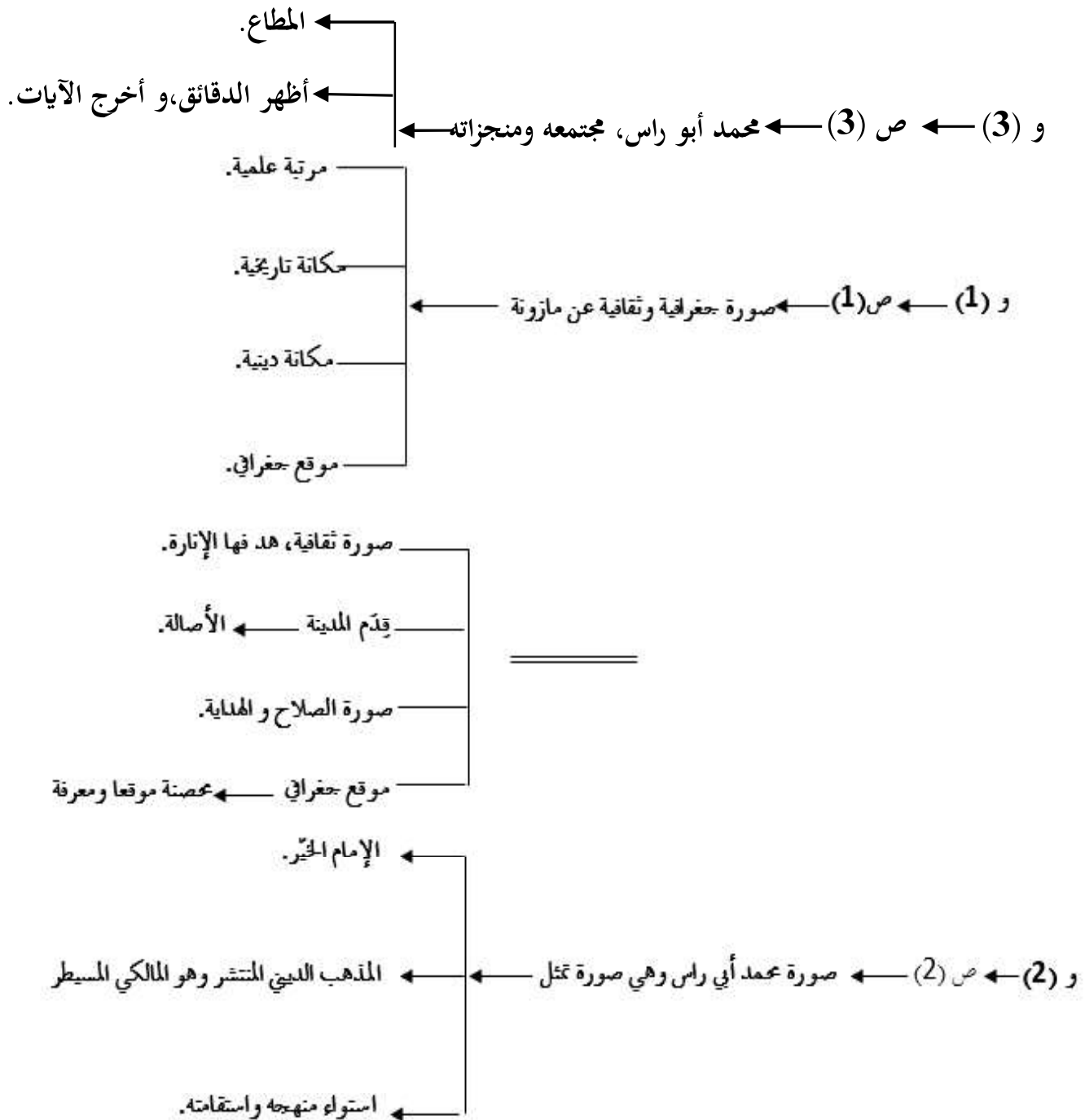
- الوحدة الثالثة: من البيت الحادي عشر إلى البيت الرابع عشر.

- الوحدة الرابعة: من البيت الخامس عشر إلى البيت السادس عشر.

في هذه الوحدات نجد أنّ الشاعر حمل الصورة الأصل صوراً ثانوية أخرى، إضافة إليها وهي كالآتي :

الوحدة الأولى ← الصورة الأولى، تمثل البعدين الجغرافي والثقافي

للمدينة ويمكن تفسيرها:



و (4) . ص (4) . موقع العالم عند ربه (الجزاء) . الصلاح والنجاح .

والمتتبع لهذه السلسلة من الصور، يستنتج سهولة الربط بينها لأنها من مادة واحدة، من مرسل واحد إلى شخص واحد وثقافة واحدة، فالرحالة المصري هنا يقف وقفة المادح، المعجب، لذا كل صورته كانت ايجابية تخلو من السلبي، ولأنه كان كذلك، استعمل عدة مصطلحات تحبب زيارة المنطقة (المجتمع الصادرة عنه الصورة) نحو: (ألمّا، انظر، سوى سبيل الفقه، أظهر، برز، أثنى عليه الفقه، يجزيه خيراً، دُم...) كما أعطى صديق أحمد صورة حسنة عن محمد أبي راس (وهو من حفدة أبي راس الناصري المعسكري)، وجعله صورة يقتدى بها في جلائل الأعمال.

وأخيراً لا نحسب هذه الصورة المتكاملة، التي رسمها الشاعر عن المدينة، وعن هذه الشخصية، تمثلها من العدم لكنه رآها ماثلة أمامه في واقع حقيقي وجليّ، الأمر الذي جعله يُبهر ويُعجب، فالصورة المرسومة أمامنا حقيقة ابتدعتها شخصية مُقدرة للعلم والعلماء.

الهوامش:

- (1) أبو حيان، التوحيد (د ت)، الإمتاع و المؤانسة، تح: أحمد أمين و أحمد الزين، ج 02، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د ط، ص. 131.
- (2) ابن هشام، الأنصاري (1991)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح : حنا الفاخوري، ج 2، بيروت، دار الجيل، ط 1، ص. 395.
- (3) عبيدات، زهير محمود (2006)، صورة المدينة في الشعر العربي الحديث، إربد، عمان، الأردن، دار الكندي، د ط، ص. 28.
- (4) أبو القاسم، سعد الله (1982)، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 3 منقحة، ص. 266.
- (5) عبيدات، زهير محمود، صورة المدينة في الشعر العربي الحديث، ص. 85.
- (6) انظر تركي، رابع (1984)، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 4، ص. 94.
- (7) المرجع نفسه، ص 128.
- (8) جنان، الطاهر (2005)، مازونة عاصمة الظهرة، ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، ص. 12.
- (9) الحسن بن محمد، الوزان الفاسي (1983)، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2، ص. 36.
- (10) الشريف، الإدريسي (د ت)، نزهة المشتاق واختراق الآفاق، مجموعة من المحققين، بور سعيد، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، المجلد 1، الإقليم الثالث، ج 1، ص. 271-272.
- (11) مارمول، كريخال (1989)، إفريقيا، تر: محمد حجي و محمد الأخضر وأحمد التوفيق وآخرون، ج 2، المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، ص. 359.
- (12) جنان، الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة، ص. 10.
- (13) Moulay Belhamissi, Histoire de mazouna, Société nationale d'édition et de diffusion, Alger, p 25.
- (14) جنان، الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة، ص. 11.
- * خليل بن إسحاق بن موسى بن شعب المعروف بابن الجندي ضياء الدين حامل لواء مذهب مالك في زمانه بمصر، ت: 776هـ / 1374م.

(15) بالحميسي، مولاي (2005)، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، منشورات الإتحاد الوطني للزوايا الجزائرية، ط1، ص. 32.

(16) جنّان، الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة، ص. 93.

(17) بالحميسي، مولاي، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، ص. 09.

(18) المرجع نفسه، ص. 09.

* النازلة: هي المصيبة، ولكن يقصد بها في هذا الكتاب (الدرر)، الحالة الخاصة في الفقه المالكي.

(19) أبو القاسم، سعد الله (1985)، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى 14 هـ (16 - 20 م)، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، ص. 31.

(20) جنّان، الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة، ص ص. 70-87.

(21) بالحميسي، مولاي، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، ص. 50.

* جلّول البدوي: شاعر جزائري (1324-1420 هـ) من مدينة البليدة، عضو بارز في جمعية العلماء المسلمين، درس القرآن الكريم وعلوم الشريعة و مبادئ اللغة العربية، كما تعلم اللغة الفرنسية، سافر إلى المغرب إبان الثورة التحريرية، ثم عاد إلى الجزائر.

(22) بالحميسي، مولاي، مازونة مقصد الدارسين، ص. 31.

* المغيليان هما : نسبة إلى مغيلة في جبل واريغن قرب مازونة وهما: أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني صاحب كتاب "حلية المسافر" وأبو زكريا يحيى بن أبي عمران المغيلي المازوني، المتوفى سنة 883 هـ قبره مشهور بمحروسة تلمسان.

(23) بالحميسي، مولاي، مازونة مقصد الدارسين و قلعة الخليليين، ص. 11.

* عبد الله المشرفي : قاض من معسكر و أستاذ القاضي المشهور بـمازونة الصادق الحميسي، تولى القضاء بعد نهاية حكم الأتراك ، ثم تولى الخلافة في عهد الأمير عبد القادر وبعدها رحل إلى المغرب ، ومات بمكناس .

(24) جنّان، الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة، ص. 103.

* أعيد بناء المدرسة في العهد الفرنسي (1852-1870 م)، وأنجزت المشروع الهندسة الفرنسية و هدمت ما بناه الأتراك ما عدا قبة بن الشارف، حيث اتسع البناء و احتوى على قاعة كبرى و بيوت للطلبة، (مازونة مقصد الدارسين لمولاي بالحميسي ص 29).

(25) بالحميسي، مولاي، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، ص. 05.

(26) المرجع نفسه، ص. 38.

* الصورة السراب (Image Mirage) : صورة تبحث في التصوّر السرابي المتخلف في الوجدان والأذهان.

(27) جان مارك مورا (1992)، "الصورولوجيا الأدبية"، تر: عبد النبي ذاكر، مجلة الأدب المقارن، العدد 3، كلية الآداب (أغادير)، ص. 04.